

آثار الشرق القديمة

كنوز السلطنة العثمانية

الاراضي ما بين النهرين وخطبة السيرويليم ويليوكوكس

نشرنا في الجزء الاخير من السنة الماضية (الصفحة ٨٦٥) مقالة عنوانها « المدينة الجديدة والمدينة القديمة في الدولة العثمانية »، وتكلمنا فيها عن الاراضي ما بين النهرين (دجلة والفرات) وخطبة سكة بغداد الحديدية . وقد قلنا يومئذ في مقدمتها ما نصه « ان هذه الارض كانت وطناً لا قدم مدينة . قال الميسو ليفني : ان اراضي ما بين النهرين وجهات بابل كانت في القرن الخامس قبل الميلاد المسيحي في حال خصب لا يصدق . فان ملك الفرس خسرو الثاني كان يجمع منها من الضرائب في السنة ما يساوي اليوم ٨٠٠ مليون فرنك . وكانت هذه الضرائب تبلغ ثلث حاصلات الزراعة . فتكون غلة تلك الاراضي في كل سنة ١٢٠ مليون ليرة فرنسوية وهي ثروة لا تعادلها ثروة . وبما ان دخل الدولة العلية يبلغ اليوم من ٢٥ الى ٣٠ مليون جنيه في العام فتلك الارض المهمة اليوم والتي تحرقها الشمس طول النهار يساوي دخلها وحدها مغايف دخل الدولة اربع مرات . ولذلك كان المقدم على كل شيء التفكير في احيائها . واذا كانت الفكرة العسكرية قد احلّت مشروع سكة بغداد الحديدية في اسمى منزلة في ذهن جلالة السلطان فان هذه الفكرة المالية قد زادت ولا شك اهتمام جلالته به »

ولم يكن يومئذ يخطر لنا بالبال عند كتابة تلك السطور ان جناب المهندس المشهور السيرويليم ويليوكوكس كان في مثل ذلك الوقت تقريباً يشتغل باعداد خطبة في غاية الاهمية في هذا الموضوع . وقد اتى بحضرته هذه الخطبة في العاصمة في اواسط مارس لهذا العام على جمهور غفير من معبي الفوائد بين وطنيين واجانب فرائنا من الواجب بعد الفصل الذي كتبناه بهذا الموضوع ان ننشر خلاصة خطبته هذه وذلك نقلاً عن جريدة المؤيد . واليك هذه الخلاصة

« قال في مقدمة الخطبة » يروى عن المأمون ابن هارون الرشيد انه قال لما صعد على جبل المقطم وابصر ارض وادي النيل منبسطة امامه » « ما كان اضلّ فرعون لما قال متبيحاً » اليس لي ملك مصر « وهو لورأى ارض الجزيرة لاستحي ان يقول ما قال » ولكن المأمون بلا شك قد بالغ في القول لان مصر كانت وستبقى دائماً ملكة البلاد التي تروى اراضيها . ويعقبها بلا خلاف في الدرجة الارض المحيية التي كان يرويها الدجلة في الازمان الماضية . وهذه سكة حديد بغداد تزحف من جهة الغرب والمدنية الغربية تكسح امامها الاعراب المنتشرين في تلك البقاع وتبدد ايدي سبا . ولطالما خطر بباله انه في الامكان مد سكة حديدية تمتد من الخليج الفارسي واخرى من شاطئ البحر الايض المتوسط وان يلتقي هذان الطريقان في وادي نهر الدجلة والفرات »

« ثم انتقل من ذلك الى الكلام على سكة حديد كندا في شمال اميركا وكيف منحت اميركا شركتها ارضاً واسعة لمده خطوطها وان الحال لا يستلزم مثل هذه الارض فيما يخص بسكة حديد بغداد . ثم اخذ يصف وادي الدجلة والفرات فبدأ ببغداد وما حوالها واطال في هذا الوصف وعرج على ما لهذه البقعة من الاثر التاريخي فقال في هذا الصدد

« تعلق بغداد على سطح البحر بقدر ستة وستين متراً وتبعد عن البحر بمسافة ٨٠٠ كيلو متراً اذا قيس على شاطئ الدجلة ولكنها على مسافة ٥٥٠ كيلو متراً اذا قيس على خط مستقيم . ويحيط ببغداد ارض مقفرة في هذا الزمان ولكنها كانت في ازمان ماضية تاج ممتلكات الدول التي قبضت على ناصية الشرق . هناك يوجد كنز الملوك التي حكمت الشرق . فحينما ذهبت ميمناً او شمالاً لا تطأ اقدمك الا ارضاً تاريخية . فاذا نزلت جنوباً على شاطئ الدجلة ترى آثار مدينة الدورة التي كان يبتدىء بجوارها بحر النهر (او ترعة النهر) ثم ترى السهل الذي اقام فيه بختنصر تمثال الذهب الذي شيده على ما يظن تذكراً لاصلاح ذلك البحر . ثم ترى بعد ذلك (تل البليج) الذي مات فيه الامبراطور جوليان من جراحه عند ما كانت نتيجة طرد الرومانيين من تلك البقاع انتقاماً بل انتقال العالم الشرقي الى دولة الفرس . ثم بغداد دار السلام ومقر ملك الخلفاء وحيث كان عرش هارون الرشيد . وترى ايضاً آثار كسوف عاصمة ملوك دولة بني ساسان الفارسيين . ثم بابل القديمة وغيرها وغيرها . وكان يحيط هذه الارض الواقعة على ضفاف الدجلة سور مدين من جهة الغرب . ومن المحتمل ان هذا السور كان مقاماً على ضفة ترعة ري . ومن الغرب ببحر النهر . وبذلك صارت هذه البقعة آمنة من تعديات صعاليك الاعراب واغنى البقاع في

بلاد الشرق

« وكما ان (ميناء) حول النيل من مجراه الغربي وساقه في طريق سفح صحراء العرب ليحيى به عاصمة مملكة منفيس من العرب الرحالة كذلك انشأ الملوك الكلدانيون الاولون تلك الترع الكبيرة لحماية البقاع الخصبة والمدن الآهلة العامرة على شواطئ الدجلة

» ثم انتقل من ذلك للكلام على ان مياه الامطار لا تكفي لري تلك البقاع وانه حصل على المعلومات الخاصة بمقدار سقوط الامطار وكل ما يتعلق بالمسائل الجوية من مذكرات للكبتن فيلكس جونز احد ضباط البحرية الهندية الذي اقام ازمناً طويلة في بغداد لدراسة كل ما يتعلق بالري هناك وان الذي استلقت نظره الى هذه المذكرات هو المستر سبرنج رايس الذي كان مندوب انكلترا في صندوق الدين المصري (والآن في سفارة بطرسبرج) ثم قال انه لا دخل له في السياسة مطلقاً وان كل ما يرمى اليه هو ان يرى (عشرة عيdan من الحشائش تنمو في مكان لا ينمو فيه عود واحد الآن »

» ثم شرع يتكلم عن مجرى نهر الدجلة ونبوعه من بحيرة (فان) في بلاد فارس ومروره على آثار مدينة نينوى القديمة وذكر ان مدينة اوبس القديمة اشبه في مركزها بالنسبة لنهر الدجلة بمدينة القاهرة بالنسبة لنهر النيل . فكما ان القاهرة على مسافة قليلة من رأس الدلتا وتوجد على مقربة منها القناطر واصل الفروع التي تروي ثلاثة ملايين فدان من ارض الدلتا كذلك كانت اوبس على مقربة من رؤوس الترع التي كانت تروي ارض دلتا الدجلة . وكأنا ارادت الطبيعة ان تكون هذه البقعة مصدراً لنظام خاص بالري »

» ثم انتقل الى الكلام عن نظام الري القديم في تلك البقاع وانه كان هناك بحر النهران على الشاطئ الايسر ونهيز الدجيل من الشاطئ الايمن من نهر الدجلة وكيف كانت تلك البقاع جنة . ثم اخذ يبين سبب انحلال ذلك النظام الهندسي وتسرب الخراب الى تلك البحار والترع مما يدخل في ضمن دائرة المباحث الهندسية ولذلك نضرب عنه صفحاً

وبعد الكلام طويلاً عن ماضي تلك الاصقاع وما آلت اليه من الخراب والدمار حتى صارت صحراء بلقاً تهب فيها رياح السموم قال في صحيفة ١٥ وما يليها

« ولقد آكلنا كثيراً عن اسباب هذا الخراب ووصفنا حالة الدمار . واما اعادة هذه الديار الى ماضيها فلستنا ننظر ان يذهب اليها الاوروبيون ليستعمروها ويعيدوا خصيتها بل الذي يغلب على الظن ان اهل الشرق سيذهبون اليها ليعيدوا شبابها ويستثروا ارضها . وهذه سكة حديد بغداد كما قلنا تزحف من الغرب وستقام خطوطها

الحديدية على ضفاف ترعة النهر وان بعد تجديدها واصلاحها ونرى بعد ذلك ماء الحياة والخصب يجري في عروق ارضها . ولت شعري هل تصلح هذه الديار باموال انكليزية تساق اليها من الخليج الفارسي جنوباً ام باموال المانية تأتي اليها من سكة حديد بغداد غرباً ؟ ولكن ما لاختلاف فيه هو ان اعادة الترع المذكورة ستؤدي الى احياء اراض واسعة حول سكة حديدية تشبه في غناها وخيراتها ارض مصر ونقوم محصولاتها بنفقات السكة الحديدية واعمال الري ويزيد من ايراداتها مقدار كبير لا بقدر قيمته الا الذين خبروا احوال الزراعة المصرية . وليس ببعيد ان يقوم عمال من الهند وربما يكونون من المصريين بحفر الترع وانشاء القناطر التي تعطي المياه بقدر معلوم . ثم يستوطنون تلك الاراضي ويحيون مواتها فتكثر موارد خيراتها وتنمو ثروتها وكأنيهم في نجب او مصر اخربين .

« ثم اخذ بعد ذلك يبين لسامعيه الاعمال التي تلزم لاعادة تلك الترع واصلاح الري في تلك البقاع وليان مقدار ما يلزم من الاموال بما ينتظر من فوائدها فقال

« ان مساحة الارض الواقعة غربي مجرى نهر الدجلة القديم تبلغ ٢٨٠٠٠٠ فدان والارض الواقعة بين المجرى القديم والجديد ١٦٠٠٠٠ فدان والارض الواقعة شرقي الدجلة شمال بغداد ٤٢٠٠٠٠ فدان وجنوب بغداد ٤٢٠٠٠٠ فدان فيكون مجموعها ١٢٨٠٠٠٠ فدان . وقدر النفقات اللازمة لاصلاح الري بمبلغ ثمانية ملايين من الجنيهات . وقدر اثمان الاراضي المذكورة على حساب ٣٠ جنيناً الفدان بمبلغ ٣٨٠٠٠٠٠٠ جنيه . وابعادها على حساب ثلاثة جنيهات عن كل فدان بمبلغ ٣٨٤٠٠٠٠٠ جنيه . وفرض انه يصرف في كل عام على اعمال الري والسدود والقناطر ١٨٤٠٠٠٠٠ جنيه . فيبقى بعد ذلك ٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه ايراداً لراس مال قدره ٨٠٠٠٠٠٠٠ جنيه فيكون الربح باعتبار ٢٥ بالمائة . ثم سألت سامعيه « فليقل الذين خبروا مصر هل تعدت هذه الارقام مبالغاً فيها » ثم قال

« اكتفيت بالكلام عن الاراضي الواقعة عند ابتداء دلتا نهر الدجلة لانني ارى ان هذه الاراضي اهم ما يستحق الذكر في تلك البقاع ولكن هناك قطعة ارض اخرى مملوءة الآن بالمستنقعات وهي واقعة بين الدجلة والفرات . وهذه البقعة في الحقيقة لا تقارن بالارض الكائنة بقرب بغداد وهي التي سبق الكلام عنها ولكن هذه البقعة الاخيرة كانت في الازمان السابقة كثيرة الخصب تخترتها ترع ومجار لريها وكانت آهلة بالسكان »

ثم اخذ يتكلم عن هذه البقعة فقال انها تسمى في كتب العرب (بالعراق العربي) ومساحتها تقدر بمليون وخمسمائة الف فدان اي عبارة عن نصف مساحة الوجه البحري في

مصر ثم قال :

« لما استوطن الكلدانيون القدماء - وهم القوم الذين جابوا الاقطار وركبوا متون الاسفار من شرق البلاد الى غربها - هذه البقعة لا بدّ انهم وجدوا نهري الدجلة والفرات يسيران في مجراها الطبيعي اللذين كانا يحفظان مياههما على الدوام . ولا شك في ان مياههما كانت تفيض في بعض الاحايين على الاراضي المحيطة بها . ولكن لما ازداد عدد الاهالي وكثرت الحاجة الى اصلاح الاراضي وحمايتها من الفيضانات انشئت الترع واقيمت الجسور وبنيت القناطر ووزعت المياه في المصارف بقدر معلوم فاخذ مجرى النهرين في التغير على حسب ما يناسب الحالة الجديدة . فلما تغيرت الايام وتبدلت الاحوال واقبلت المصائب والزوايا بكليتها على هذه البلاد وسدت افواه المصارف والترع لم يعد مجرى النهرين قادرين على تحمل المياه ففاضت حتى صيرت تلك البقعة الواسعة مستنقعا وهكذا وصلت الى ما وصلت اليه اليوم

« وفي هذه النتيجة التي وصلت اليها بلاد العراق خير درس لمصر يجب ان لا تنساه في ايام عزها وثروتها

« ويعرف المشتغلون بهندسة الري ان طريقة الري من مجرى النهر الاصلي ان المياه كانت تؤخذ من النيل مثلاً في اوّل الفيضان محملة بالطمي ثم تعود اليه في التصفية خالية من الطمي المذكور وبذلك كان مجرى النيل يبقى نظيفاً حافظاً لشكله الاصلي واتساعه المعتاد ولهذا السبب عينه وجدنا نهر النيل بعد سبعة آلاف عام قادراً على تحمل مياهه كما كان ايام (ميناء) . اما الآن وقد حلّ الريّ الصنفي (اي الريّ بواسطة الترع وغيرها) مكان الري من مجرى النهر فنحن نقول الكلدانيين فيما عملوه على شاطئ الدجلة والفرات . فلذلك ارى من الواجب علينا ان نراقب بعين اليقظة مجرى نهر النيل ولا نتركه ينقص او يضيّق عن تحمل مياهه وواجب ان نتخذ الاحتياطات باخذ المقاسات السنوية حتى اذا وقفنا على نقص في جهة عملنا على تدارك الخطب قبل استفحاله »

« وعاد بعد هذا الى موضوع امكان اصلاح العراق العربي وما يلزم بناؤه وانشاؤه من الترع والجسور وغيرها فقال : انه وصل الى علمه ان جلالة السلطان عبد الحميد بدأ بنجاح وافر في احياء الاراضي الواقعة بالقرب من بابل وذلك بانشاء ما يلزم انشاؤه لحيائها . واذا اعتمدنا في تحقيقتنا على النفقات التي انفقت على القناطر والجسور والمصارف في مصر نقول ان هذه الاعمال نفسها في وادي الدجلة والفرات تكلف جنيناً واحداً عن

الفدان الواحد لانشاء القناطر ونصف جنيه عن الفدان للجسور وجنيهين ونصفاً عن الفدان للترع وجنيهاً ونصفاً عن الفدان للمصارف او بعبارة اخرى عشرة جنيهات عن كل فدان «
 » وذكر ان هذه الارقام مأخوذة من كتابه المسمى « الري المصري » ، وانه وصل الى
 تقديرها بعد خمس عشرة سنة قضاها في الاخبار والعمل . ويؤخذ من الجدول الآتي البيان
 الكافي عن تقديرات الخطيب لاثمان الاراضي ونفقات الاعمال الخاصة باصلاح ريفها «

فدان	نفقات الاعمال	ثمن الارض
كلدانيا الشمالية ١٣٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	١٩٠٠٠٠٠٠
كلدانيا الجنوبية ١٥٠٠٠٠٠	٣٢٥٠٠٠٠	١١٠٠٠٠٠٠
المجموع ٢٨٠٠٠٠٠	٥٢٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠٠

« وقال في ختام خطبته ما يأتي » تسمى بغداد دار السلام ولكنه سلام سوف يحل
 ساحتها وهو السلام الذي حرمت منه في زمان طويل منذ ايام تيمور وهلاكو وغارات التتار
 الذي كان قد دهمهم الى تلك الاصقاع انكى وادعى من تغيير مجرى الدجلة وتركه تلك
 الارض قاعاً بلقعاً . وستكون هذه الارض غرة في جبين الدنيا يهرع اليها الوف
 العمال من الهند ومصر لانشاء السكة الحديدية من الكويت (او القويط) شمالاً
 والترع والمصارف بالقرب من آثار اوبيس القديمة جنوباً . وهكذا تنقل السكة الحديدية
 الرجال والعمال والادوات من الخليج الفارسي لاحياء الاراضي وانشاء المدن في تلك البقعة
 الواسعة . ولا حياة للسكة الحديدية بغير احياء الارض . ففي اليوم الذي تلتقي فيه السكة
 الحديدية من البحر الاحمر بالسكة الحديدية من الخليج الفارسي تكون بطاح كلدانيا القديمة
 خضراء زاهرة تقوم بتصدير محصولاتها التي يطلبها الشرق او الغرب . وليس في الارض بقعة
 اجود تربة وانفع لزراعة الخضر والحبوب من هذه البقعة . فالقطن وقصب السكر والذرة والبرسيم
 والافيون والدخان وغيرها من النباتات التي تنمو في مصر تنمو ايضاً في تلك البلاد . وزد على
 ذلك ان جوها صالح لكل شيء . فبلاد هذه شأنها يجب ان لا تبقى مقفرة قاحلة في
 الوقت الذي ترحف فيها سكة حديد بغداد من الشمال واوربا تبحث عن ارض تستثمر
 فيها المال « اه